المستوى الاول هو حضور الماضي ، ونرى ذلك خلال مؤشرات عدة أهمها الاحتضان المستمر للارض : « وسحبت من فتحتها عرقا بدا يابسا ورمته نحوي :

ـ « قطعته من دالية صادفتني في الطريق ، سأزرعه لك على الباب ، وفي اعوام قليلة تأكل عنبا » .

ـ « قد لا تعرف شيئا عن الدالية ، ولكنها شجرة عطاءة لا تحتاج الى كثير من الماء. الماء الكثير يفسدها . . . »(١٢) .

هنا يلقي الماضي ظله على الحاضر ، وفي عملية الالقاء هذه يكون الماضي مسيطرا ، لكنها ليست سيطرة ستاتيكية بل سيطرة دافعة . نلمس نوعا من الدائرية المحكومة بالدفع والحركة : حاضر يرتمي في الماضي ، وماض يرتمي في الحاضر ، كل ذلك من خلال علاقه ديالكتيكية فاعلة .

ويتجلى الحنين الى الارض في مكان آخر حين تقول :

« والزيتون لا يحتاج الى ماء ايضا ، انه يمتص ماءه عميقا في بطن الارض ، من رطوبة التراب »(١٣) .

من خلال « عرق الدوالي » والزيتون يتم استرجاع الماضي ، وهذا الاسترجاع له دور وظيفي ، وهو تجميل الحاضر بواسطة ارجاع قسري لخضرة الماضي « سأزرعه ، وسترى كيف يعطي عنبا ، هل قلت لك أنه لا يحتاج الى ماء، وانه يعتصر حبات التراب في عمق الارض ويشربها ؟ »(١٤) .

واذا كان بؤس الارض قد ولد السماء ، فان بؤس الحاضر يعيد توليد الماضي ، والفرق أن التوليد الاول دليل على اليأس ، في حين ان التوليد الثاني يمور ويتحرك ويندفع الى الامام .

المستوى الثاني ويتضمن شروط الحياة المادية التي تغوص فيها أم سعد والتي تشكل المادة الخام لتملك الوعي ، والتي تنبجس بواسطة الممارسة والعمل الجماهيري . وتشكل شروط الحياة المادية كلية بائسة حيث أن هناك حضورا مستمرا للبؤس على جميع مستويات الحياة اليومية ، هناك قمع متعدد الابعاد .

فالمخيم هو التعبير الاكثر قوة ، انه نبراس البؤس والقمع ، انه نقيض الوطن والكرامة والحرية ، انه يجثم ثقيلا وربما بشكل قاتل لو لم تنطلق منه بندقية . وأم سعد تعيش فضاء المخيم بكل أبعادها » .

حكت الوحل بأصابعها الخشنة ، ثم تركته لشأنه حين أحست انه ما زال طريا ، وقالت :

ـ طاف المخيم في الليل . . . الله يقطع هالعيشة(١٥) .

ـ صرت امرأة عجوزة . صرت اتعب . امضيت كل الليل غارقة في الوحل والماء . عشرون سنة . . .(١٦) .

ـ لا اريد أن أموت هنا ، في الوحل ووسخ المطابخ »(١٧) .

واذا كان المخيم هو المجال الاول للقمع ، فان مكان عمل أم سعد هو المجال الثاني للقمع « كانت أم سعد قد وصلت ، نازلة ، الى الطابق الثالث ، لاهثة وراء الماء ورغوة الصابون وبرد الشتاء يقرص قدميها الحافيتين . بلحم كفيها المضرجتين بآثار أحذية الصاعدين والهابطين »(١٨) .